Journal Of the Iraqia University (69-1) September (2024)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.iasj.net/iasj/issue/2776

التحوّل القيميّ في شعر ابن عمار

م.د أحمد تركي حمد

جامعة تكريت كلية التربية الأساسية/ الشرقاط/ قسم اللغة العربية

The transformation of values in Ibn Ammar's poetry

Dr. Ahmed Turki Hamad
Ahmed.hamaad@tu.edu.iq
Tikrit University, College of Basic Education/Sharqat/
Department of Arabic Language

ملخص البحث

يثير هذا البحث ظاهرة التحوّل القيميّ عند أبي بكر محمّد بن عمّار الأندلسي, الشاعر الذي يتبنّى قضيّة ما, فيدافع عنّها بكلّ ما أُوتي من بيان, وقوّة شعر وسلاطة لسان, ثم ما يلبث أنْ يتخلّى عن تلك القضيّة, لينقلب إعجابه, ازدراءً, ومدحه هجاءً, ودفاعه عنها حربًا شعواء, فهو لم يَنسَ بعدُ تلك الأماني العذبة التي كانت تزحم نفسه يوم ضاق به العيش في بلدته(شلب) فنزح عنها وفي نفسه آمال، وفي قلبه أمان، وفي صدره عزم، وفي دمائه شِعر, لقد ترك بلدته ,مهد ميلاده, ومَدْرج طفولته, ومَغْنى شبابه ؛ ليدُور بشعره على الملوك, يسترفد مالهم بما يرفده عليهم من شِعره وقد دار، ومدح، فبَالَغ في المدح، وكذَب على الحق فأوغَل في الكذب، وأمات ضميره؛ ليجعل الظالم منهم عادلًا, والمجنون فيهم حكيمًا، وقد محا من ذاكرته كل ما يعرفه عن هؤلاء الملوك من شر، و أنمى بشاعريته كلَّ ما كان يعرفه عنهم من خير، ثم زاد عليه، وأنشأ لهم الخير، وقلب مقابحهم أفضالًا, ومدح ثم مدَّ يدَه وثناها, ألا ما أبخس ثمن الضمير في رحاب الملوك !إنه ليفكر, أنال كُفْء ما أعطى؟ أكانت تساوي هذه الدُّرَيهماتُ خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه؟ ليس ابن عمار من فعل بنفسه هكذا, بل زمانه (عصر الطوائف) من يدفع بالصادق حتى يصبحَ كذوبًا, وبالمخلص حتى يخون, والمعتدل حتى ينحرف, فكان المزاج الأدبي يفرض على الشاعر(غالبا) توجيهات مضمرة, كي يكسب أكثر, ويتقرّب أكثر.من هنا تستثمر هذه الدراسة ظاهرة التحوّل القيميّ للمواقف عند ابن عمار, فوجدناه يتحوّل من القيمة المدحية إلى القيمة الهجائية بلمح البصر, لا لشيء؛ بل للضرورة النفعيّة والوصولية فقط! ومن ثم ينقلب الهجاء اعتذارًا تمهيدًا للمدح مرة ثانية, إنْ سنحت الفرصة بذلك.**الكلمات المفتاحية:**التحوّل القيميّ, المدح , الهجاء, الاعتذار, الأندلس, الوصول.

This research raises the phenomenon of value transformation in Abu Bakr Muhammad bin Ammar Al-Andalusi's poetry, the poet who adopts a cause and defends it with all his statement, strength of poetry and authority of tongue. Then he soon abandons that cause, and his admiration turns into contempt, and his praise into satire. And his defense of it is a fierce war. He has not yet forgotten those sweet hopes that crowded his soul when he became tired of living in his town (Shalab), so he left it with hopes in his soul, calmness and determination in his heart, and poetry in his blood. He left his town, the cradle of his birth, and the playground of his childhood. And the enrichment of his youth.He showed his poetry to kings, to benefit their money with the poetry he provided to them. He showed and praised, but he exaggerated in his praise, and he lied to the truth, so he went to extremes in lying, and deadened his conscience. To make the unjust among them just, and the crazy wise, and he erased from his memory all the evil he knew about these kings, and he developed with his poetry all the good he knew about them, then he added to it, created good for them, and turned their ugliness into virtues, and praised. How cheap is the price of conscience in the realm of kings! He thinks, Am I going to get what I gave? Was this money equal to his outburst, spin, lying, and fabrication? It was not Ibn Ammar who did this himself, but rather his time (the era of Twa'ef) that pushed the truthful until he became a liar, the sincere until he betrayed, and the moderate until he deviated. The literary mood imposed on the poet (often) implicit directions, in order to gain more and get closer.

Hence, this study exploits the phenomenon of the shift in value in attitudes about Ibn Ammar, and we found him shifting from the praising value to the satirical value in the blink of an eye, and for nothing. For utilitarian and access necessity only! Then the satire turns into an apology in preparation for praise again, if the opportunity arises.
key words: Value shift, praise, satire, apology, Andalusia, arrival.

ابن عمار:

هو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار, ولد سنة ٤٢٢هـ , في قرية شنبوس قرب شلب في الجنوب الغربي من الأندلس.(ينظر: ابن بسام، ١٩٩٧ , ص٢٢١) لعائلة فقيرة متواضعة, ليس له ولا لأسلافه في الرياسة حظ من بعيد أو قريب(ينظر: المراكشي, ١٩٣٦, ص١١٤) غير أن ابن عمار امتاز بذكاء وقّاد وطموح واسع وفصاحة, وشخصية قادرة على الإقناع والإغراء(ينظر: المراكشي, ١٩٣٦, ص١١٩) مما ساعده على الإفادة من تجاربه وخبراته في الوصول إلى مطامحه ومطامعه, ولم تكن المثل الخلقية, بل وحتى الشعر نفسه سوى وسائل تعينه على بلوغ أهدافه وتحقيق مآربه, مما جعله شخصًا مرهوب الجانب كثير المكر والدهاء.(ينظر: ابن دحية, ١٩٥٤ ص١٦٥) وبعد أن أنهى دراسته الأولية في شلب انتقل بعد ذلك إلى قرطبة في طلب العلم، والتكسّب في الشعر ، وأول حظوة نالها كانت لدى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية فجاء إليه ومدحه بقصيدة رائية غاية في الإتقان؛ ليصبح بعد ذلك من شعراء القصر المقدمين. (ينظر: المقري,١٩٩٧, ص ١٥٥, و العريس , د ت , ص٢٣٧)وفي بلاط المعتضد تعرف على الأمير محمد(المعتمد) بن المعتضد فتأصلت بينهما الصحبة وتأكدت، ويعد هذا اللقاء نقطة تحول في حياة ابن عمار؛ إذ تحققت طموحاته المادية, والأدبية؛ فالمعتمد شاعر من أفضل شعراء عصره, وفيه ميل إلى اللهو والمجون, فسُرَّ به وقربه, ومنحه منزلة وغنى, فكان يحضره مجالس أنسه, ويستدعيه إليها, ويفضله على من حوله من خاصته (ينظر: والي, ١٩٩٦ ص ٢٣٩) وقد أدرك المعتضد أن حال ابنه المعتمد وحال الشاعر ابن عمار ذواتا خطر على ملكه؛ فأحاطهما برقابة شديدة، ثم أبعد ابن عمار عن إشبيلية سنة ٤٥٠هـ فمضى ابن عمار يتنقل في البلاد واستقر في سرقسطة وبقي بعيداً عن المعتمد إلى أن صار المعتمد بن عباد أميراً على إشبيلية, وبعد وفاة أبيه وفد إليه ابن عمار وشغل وزارته(ينظر: المراكشي, ١٩٣٦ , ص٩٠, و فروخ، د ت, ٦٣٨/٤), ثم أرسله عاملًا على (شلب) بناء على رغبته, ثم أرسله إلى مدينة مرسية في سنة ٤٧٤هـ بعد أن جهزه المعتمد بجيش جرار, ليأخذها ويضمها إلى مملكته، ولكن العجب داخله والطمع سولا له, فاستبد بالمدينة وخرج عن طاعة المعتمد، وبعد نحو سنتين ٤٧٦هـ خرج إلى طليطلة، فاستبد نائبه ابن رشيد بالأمر وخرج عن طاعة ابن عمار وأغلق أبواب مرسية في وجهه(ينظر: الداية , د ت, ٩٢, و والي, ١٩٩٦ ص٢٤٠)فتوجه إلى المؤتمن بن هود في سرقسطة سنة ٤٧٨هـ واتفق أن تمرد أحد أتباع المؤتمن بن هود في حصن من الحصون، فاقترح ابن عمار على المؤتمن أن يعيد المتمرد إلى الطاعة، واستطاع ابن عمار أن يعيد القلعة إلى السلطان المؤتمن ثم تمرد بنو سهيل في قلعة شقورة فجاء ابن عمار ليعيد هذه القلعة إلى السلطان المؤتمن ولكن بني سهيل خدعوا ابن عمار وقبضوا عليه وألقوه في السجن سنه ٤٧٧ هـ وبحثوا عن راغب في ابن عمار يدفع فيه الثمن واستطاع المعتمد أن يدفع ثمنه وسيق على أسوأ حال إلى المعتمد بن عباد ودخل إلى إشبيلية دخول الأسرى ونزل في أحد سجون المعتمد واستعطف ابن عمار صديقه القديم بقصائد كثيرة ولكن دون جدوى(ينظر: الضبي, ١٩٨٤,ص ٢٢٧) ثم دخل عليه المعتمد بن عباد, فظن أنّه جاء ليفك وثاقه, لكنّه فاجأه بضربة من طبرزين كان في يده, هوى بها على رأسه فأنهت حياته, فدفن في قيوده خارج باب القصر, وكان ذلك في عام ٤٧٩ هـ (ينظر: ابن الأبار، ١٩٨٥, ١٦٠/٢)أما شعره فقد كان محط عناية من تقع عينه عليه؛ إذ جمع بين جزالة المشرق, وعذوبة الأندلس, يقول المراكشي: إنه ((كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم بن هانئ الأندلسي, وربما كان أجمل منتزعًا منه في كثير من شعره ... ولم ألفِ أحدًا ممن أدركته سنيّ من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلّا رأيته مقدمًا له مؤثرًا لشعره, وربما تعالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب)) (المراكشي, ١٩٣٦ ص١٠٢)ظل شعره منثّرًا في بطون الكتب لم يجرؤ أحد على جمعه, إلى أن جاء كاتبنا العراقي (صلاح خالص) ليبحث عمّا تبقّى من شعر ابن عمار في مختلف مكتبات العالم, الخاصّة منها, والعامّة, فجمعها في كتاب واحد أطلق عليه (محمد بن عمّار الأندلسي, دراسة أدبية تاريخية) ليكون المرجع الوحيد لأي باحث يريد أن يدرس ابن عمار.

قيمة المدح:عانى الشاعر من فقر وضعف في المكانة الاجتماعية؛ نظرًا لضعة أصله , وقصور أهله عن إدراك الأمجاد وتحقيق المنجزات، الأمر الذي شجعه على تحقيق ذاته، وصعود سلم المجد,(ينظر: المراكشي, ١٩٣٦ , ص١٧٢) وقد مرت على ابن عمار أحداث وتحولات كبيرة أثرت في حياته, ونفسيته, وأخلاقه, ومشاعره, وولائه, وانتماءاته، وامتدت هذا التحولات لتصل إلى نتاجه الأدبي، فتباينت القوى الملهمة للشاعر تبعًا لتغير الظروف التي مرت به، والمتتبع لنتاجه لا تخفى عليه هذه المؤثرات المختلفة التي لونت أدبه بلون منفرد في كل مرحلة من مراحل حياته، ابتداءً من طفولته المشردة، وصباه الكئيب المعسر، وصولاً إلى كفاحه من أجل الحياة، وصعوده سلم المجد وارتقائه ذروة السلطان والعظمة، وانتهاءً بوقوعه في السجن ذليلًا حتى بلوغه النهايته المؤلمة. (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٥-٦)فكان من الطبيعي أن يجوب ابن عمار حواضر الأندلس دون وجهة معينة؛

يبحث عمن يأويه ويحقق أمله, بغض النظر عن القيمة الإنسانية, المهم أنْ يتحقق الحلم الذي كانت تنشده مخيّلته, فلم يبق ملك, أو أمير, إلّا ووقف ببابه, ليستقر بعد محاولات كثيرة عند (المعتضد) أعظم ملوك الأندلس حينذاك, (ينظر: المراكشي, ١٩٣٦ , ص١٧٢) فاستطاع أنْ يصل إليه بهذه القصيدة: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٨٩).

أَدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليلُ منه العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداه جوهرا
روض كأن النهر فيه معصم صافٍ أطلَ على رداءٍ أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخالُه سيف ابنِ عبادٍ يهدد عسكرا

إنّ الورقة الرابحة في هذه الفترة هي الورقة المدحية, وقد استهدف الشاعر بذكاء عاطفة المعتضد؛ فهو يعرف أن من يقف أمامه خبير بالشعر, فلا يمكن أن يعجب إلّا بعيون الشعر, ولأن شاعرنا يمتاز بدهاء ثاقب؛ يعلم بأن اتصاله بالقوي ليس كاتصاله بالضعيف؛ فهدفه لا يقف عند حدود الشعر، فيستهل نصه بوصف الطبيعة الممتزج بالغزل والمدح في آن! فقد رسم للممدوح لوحة فنية أرغمه على الإعجاب والتخيل, فالنسيم قد تقلّب وطاب عندما اتجه إلى السرى(آخر الليل), والصباح لا يقل جمالًا عن الليل؛ فالأوّل كافور, والثاني عنبر, وهو لا يريد وصف الطبيعة لذاتها, بل ضمّنها مدحًا وفخرًا للمعتضد, فقد جعل أوقاته كلها جميلة ثم ينتقل إلى الروض(مملكة المعتضد) فيجعل منه امرأة حسناء فائقة الجمال, ثوبها من الزهر , وقلادتها من جواهر الذي شبهه بالندى, وفي هذا الروض نهر صاف, كأنه معصم بيد تلك الحسناء, ثم يتوغل بالمدح أكثر , فيجعل هذا النهر سيفًا بيد المعتضد يهدد به الجيوش.ثم يسترسل بالمدح؛ ليرفع شأن ممدوحه إلى أقصى ما يكون, فيقول: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٩٠)

مَلِكٌ إذا ازدحم الملوك بمَوردٍ ونَحاه لا يَرِدُون حتى يَصدُرَا
أندَى على الأكبادِ من قَطْرِ الندَى وألذُّ في الأجفان من سِنَة الكَرى
قدَّاح زند المجد لا ينفَك عن نار الوغى إلا إلى نار القِرى

ومن الملاحظ أن ابن عمار يتنقّل في مدحه ما بين الصفات الجمالية, والقاسية؛ فبعد أن جعل من المعتضد مقدمًا على ملوك زمانه, وسيفه بتّار ضد أعدائه, يصفه على أنه ندي على الأكباد, خفيف الظل, كريم, هو من أوقد شعلة المجد التي لا يتخلّى عنها إلّا إلى شعلة القِدر(كناية عن السخاء) وهي أعظم صفات يتصف بها إنسان, ثم ينتقل إلى صفات أخرى, بقوله: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٩٠)

مَن لا تُوازِنُه الجبالُ إذا احتَبَى مَن لا تُسابِقه الرياحُ إذا جرى
وجَهِلتُ معنى الجود حتى زرتُه فقرأتُه في راحتَيه مُفَسَّرا
فاح الثرى مُتعطرًا بثنائه حتى حسِبنا كل تُربٍ عنبرا

ثم يتحدث عن إنجازاته, فيبالغ بجعل المعتضد يزن جبلًا إذا احتبى, وأعدى من الرياح إذا جرى, ومعاني الجود قد كُتبت على كفيه, وحتى التراب قد نال من كرمه الذي أصبح له عطر لكرم المعتضد وجماله, غير أن الشاعر عادة ما يمزج ما بين القسوة والجمال لا سيما في هذه القصيدة التي أعطته بطاقة التأهل لشعراء القصر, وربما هي من لفتت نظر المعتضد لبراعة ابن عمار في الشعر, يقول: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٩٣)

أثمرتَ رُمْحكَ من رءوس كُماتِهم لما رأيتَ الغصنَ يُعشَق مُثمِرا

فقد جمع الشاعر بين الرعب والجمال, وهذا نادر ما يحصل في شعر المدح؛ ففي صدر البيت الأوّل صورة مخيفة؛ فرمح المعتضد قد أثمر جماجما, وهو منظر مرعب, ثم يسوغ لبشاعة ذلك المنظر في العجز بتشبيهه بالغصن المثمر, يريد أن يقول بأن رمحك يا ابن عباد رمح الفارس المغوار الذي أثخن في القتل حتى حُمِّل رمحه برؤوس الأبطال من أعدائه, ليس كباقي الرماح التي بقيت فارغة لم تقتل أحدًا ! وهذا يبين دهاء ابن عمار في إمساكه بخيوط اللعبة من أول قصيدة؛ إذ إنه يعلم مدى التنافس الشرس بين ملوك الطوائف, فالكل يبحث عن مجد مفقود يحاول أن يعوضه بهذه المجاملات التي يعرف أنه لا يستحقها, غير أنه يرتاح لها نكاية بمن حوله من الملوك؛ فلا غرابة من تقلب الشعراء وتحولاتهم , ويكرر المعنى ذاته فيقول: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٩٣)

وصَبَغتَ درعكَ من دماء مُلوكهِم لمَّا علمتَ الحُسنَ يُلبَس أحمرا

إنّ إصرار الشاعر على تضمين المشاهد المرعبة بالحسنة لم يكن عفويًا، بل كان مدروسًا؛ لأنه أراد أن يأتي بمعنًى جديد يلفت فيه نظر المعتضد, وقد تحقق ذلك، ثم يختم نصه بالاستعطاء صراحة, ويمضي : (ابن عمار, ١٩٥٧, ص١٩٤)

فلئن وجدتَ نسيمَ حمدِي عاطرًا فلقد وجدتُ نسيمَ بِرّكَ أعطرا

وإليكَها كالروضِ زارَتْه الصَّبا وحنا عليه الطَّلُّ حتى نَوَّرا

ثم خَرَج ابن عمار من ديوان المعتضد؛ ينتظر ما قد يجود به عليه، فانتظر فطال به الانتظار، لكنّ بقاءه عبثٌ؛ إذ لا طائل منه، فحاول أنْ يُصبِّر نفسه, ولكنّه أحسَّ أنّ آماله بنيل الجائزة خيال، فترجّل وفي نفسه حَسرةٌ ؛ فقد كان كلٌّ يعقد الأمل أن يُقيم بهذه الرحاب غير مشرد، غير أنّه يخرج حتى دون الجائزة التي كان يتوقعها من الملوك الذين لا يفقهون الشعر ويُقدِّرونه, ولم يكد الشاعر يخطو متباعدًا من القصر حتى لحقَه شخص ينادي به فكذَّب أُذنَيه أول أمره ولكن النداء ألَحَّ فالتفَت, فإذا هو خادمٌ القصر يسعى إليه، طالبًا منه أن يعود إلى القصر, ورجع فأمر المعتضد أن يُكافأ فتُجزَل له المكافأة, وأَمر له بملبس فخم وبمركب فاخر، وكل هذه الأُعطِيات لا تُساوي شيئًا في نظَر الشاعر إذا قاسها بالأمر الأخير الذي صدر بأن يُكتَبَ اسمه ضمن شعراء القصر, وما أنْ بات ليلة غير التي عرفها أيام ضياعه, وإذا بخادم يطلبه لمجلس الأمير محمد (المعتمد), فيلتفت له ويقول: يا ابن عمار! لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئًا، أتمشي قبل أنْ تَنال جائزتَكَ؟(ينظر: المصادر التي ذكرت في ترجمته)فيروي على المعتمد ما لاقاه في يومه من آمال خابت, وانتظار طال, ثم يكمل القصة بهذا الخير الذي سُكب عليه في رحاب القصر، فيسُرُّ المعتمد بالشاعر الجديد ويقرِّبه إلى مَجلسِه, لتبدأ المرحلة الأهم من حياة ابن عمار, وتتحول القيمة المدحية من المعتضد الملك, إلى الأمير المعتمد, وبعد أن زادت علاقة المعتمد بابن عمار عن الحد, توجس المعتضد على ابنه من ابن عمار خيفة؛ كيما يفسد أخلاقه, فقام بنفي ابن عمار إلى سرقسطة(ينظر: المراكشي, ١٩٣٦, ص٩٠), فبقي هناك؛ لتتحول القيمة المدحية إلى قيمة هجاء وتهكم, كما سيأتي في الفقرة التالية.

قيمة الهجاء:هنا ينقلب ابن عمار انقلابًا كاملًا, فتحولت عنده قيمة المدح إلى هجاء مقذع؛ ولا غرو, فالشاعر يمدح كي يحقق مكاسبًا, وعندما فقد تلك المكاسب, انتفت الحاجة للمدح، فتحول للهجاء, وهذا ليس تهورًا؛ فالشاعر عندما يريد أن يتحول من قيمة المدح إلى قيمة الهجاء سوف يجد الكثير في استقباله من أعداء (المعتضد), وبذلك تكون نتائج الهجاء ذات فائدة لا تقل عن فائدة المدح؛ فمن الطبيعي أن يتم إكرام الشاعر من قبل المنافسين من الممالك الأخرى بنفس الطريقة التي تلقاها بقيمة المدح, أو ربما أكثرفيقول مثلا في هذا النص الذي يسخر فيه من المعتضد وابنه المعتمد, بعد أنْ رفع شأنهم, وذهب بتمجيدهم أقصى مذهب, يقول: (إنْ صحت نسبة النص إليه) (الغديري, ٢٠٠٠, ص ٤٥-٤٦).

مما يقبح عندي ذكر أندلس سماع معتضد فيها ومعتمد

أسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

نلاحظ بأن الشاعر لا يمتلك موقفا ثابتا لا في مدحه, ولا في هجائه؛ فكلما حكمت المنفعة الشخصية, تغير موقفه واختلفت القيمة وفقًا لذلك, غير أنه يتمادى أكثر عندما يهتك عرض صديقه وصاحبه وملكه المعتمد, الذي انتشله من الضياع والتشرد, إلى العلوّ والمجد بهذه القصيدة التي أنهت كل شيء, يقول : (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٢٩١)

ألا حيّي بالغرب حياً حلالاً أناخوا جمالاً وحازوا جمالا

وعرّج بيومين أم القرى ونم فعسى أن تراها خيالا

لتسأل عن ساكنيها الرما د ولم تر للنار فيها اشتعالا

لقد تنكر ابن عمار لكل ما كان بينه وبين صاحبه المعتمد, فكشر عن أنيابه, وتحولت كل القيم الإنسانية السامية ما بينه وبين صديق عمره، إلى قيم مشوهة، يلفها الحقد والكره ونكران الجميل؛ فالديار التي كانت محط عناية ومحبة، جعل منها أماكن مبتذلة لا قيمة لها ولا لأهلها, ثم يتوغل أكثر في التمادي عندما يلصق بصاحبه هذه التهم الخطيرة: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٢٩١)

أيا فارس الخيل يا زيدها حميت الحمى وأبحت العيالا

اراك تورى بحب النسا ء وقد ما عهدتك تهوى الرجالا

إنّ هذا النص يبين قوة وخطورة ابن عمار, بل يبينها في عصر الطوائف أجمع؛ إذ نلحظ بأنّ ابن عمار بالشعر فقط استطاع أنْ يكون ندًا للأمراء والملوك, وهو لا يمتلك من المقومات غير الشعر؛ فيرفع بالقيمة المدحية من يحقق له ما يريد, ويُنزل بمن يعارضه الصواعق الهجائية, كما حصل بهذا النص الذي جرّد به المعتمد من كل الصفات الحسنة, الكرم والمروءة وحماية الجار, بل ذهب أبعد من ذلك عندما جعل المعتمد ماجنًا, فاسقًا, شاذًا, يدعي حب النساء ولكنّه يشذ بمحبة الرجال, وهذه أقسى درجات الهجاء, ثم يعود ليضرب المعتمد بأعز ما يملك، زوجته اعتماد الرميكية, وأبنائها: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٢٩٢-٢٩١)

تخيرتها من بنات الهجا ن رمكية ما تساوي عقالا

فجاءت بكل قصير العذا ر لئيم النجارين عماً وخالا

قصار القدود و لكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا

لقد تفنن ابن عمار في هتك عرض صاحبه, فهو خبير بهذه العائلة؛ فهو يعرف اعتماد منذ أنْ تعرف عليها عندما كانت جارية, إلى قصة الحب التي دارت بينهما من أول لقاء, إلى أنْ تقدم المعتمد لخطبتها, لتصبح السيدة الأولى في الأندلس؛ فقد كان شاهدًا على تلك الأحداث, وقد تغنّى في مدح أبنائها وديوانه مليء بالقيم المدحية لهم, ولأبيهم بل لمملكة آل عباد جميعًا, لا يتسع المقام لذكرها, غير أنْ الحذر يؤخذ من مأمنه، لم يكن يتوقع المعتمد أنّ ولاء صديق عمره سوف يتحول إلى عداء، انظر ماذا يريد أنْ يذكّر صديقه: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٢٩٢-٢٩١)

أتـذكـر أيامـنا فـي الصـبا وأنت اذا لحت كـنت الهـلالا

أعانق منك القضيب الرطي ب وأرشف من فيك ماء زلالا

وأقـنـع مـنك بـدون الحـرا م فتقسم جهدك أن لا حـلالا

لا نعلم من أين يستمد ابن عمار هذه الجرأة, لقد تطاول لحد الغلوّ, ولا يمكن لأيّ إنسان أنْ يسمع هذا الهجاء دون أنْ يفقد صوابه! ولكن القضية لم تقف هنا, بل أخذت منحًى آخر, ربما أخطر من الذي سمعناه, يقول: (ابن عمار, ١٩٥٧, ص٢٩٢-٢٩١)

سأكشف عرضك شيئاً فشي ئاً وأكشف سترك حالاً فحالا

إنّ الذي قاله ابن عمار أشد فتكًا من كل الذي مر علينا؛ لأنّه هنا استخدم لغة التهديد , والوعيد, فاستعمال الشاعر للفعل المضارع المسبوق بالسين التي تستعمل للمستقبل يشي بأنّ لديه كلام كثير لم يتطرق إليه، وما يؤكد ذلك قوله: **(شيئاً فشيئاً, وحالاً فحالا)** كأنّه يريد أن يقول للمعتمد ما هو إلّا النزر القليل, فعرضك, وسترك تحت رحمتي ولكنني لا أريد أن أبوح بما أعرف عنك جملة واحدة, وربما أراد من المعتمد أنْ يفاوضه مقابل السكوت!.

وعندما وصلت القصيدة مكتوبة بخط ابن عمار بين يدي المعتمد بن عبّاد حزن حزناً شديداً لما آل إليه حال صديقه من خيانة العهد والتنكر للصداقة

<u>قيمة الاستعطاف</u>:تتجذر قيمة الاستعطاف لدي ابن عمار في مرحلتين, الأوّلى: عندما نفاه المعتضد من إشبيلية, خوفًا على ابنه المعتمد من ابن عمار, أما الثانية: فقد كانت بعد تمرد ابن عمار على المعتمد, وهجائه في القصيدة التي سبق الحديث عنها في الفقرة السابقة، ولعلّ أهم قصيدة قالها في المرحلة الأوّلى هي: **(عليَّ وإلا ما بُكاء الغمائم؟),** إذ إنّها خلصته من حياته الشاقة المتعبة، وتشرده بين المدن الأندلسية، وأعادته إلى النعيم الذي عاشه في كنف آل عباد ، بجلوس المعتمد على عرش إشبيلية، فأرسل إلى صاحبه هذه القصيدة يستعطفه بها ويشكو سوء الحال: (ابن عمار، ١٩٧٥ ص٢٠٩)

عـليَّ وإلا ما بُـكاء الـغمائـم؟ وفيَّ وإلا مـا نُواح الحمـائمِ؟

وعني أثار الرعد صرخةَ طالبٍ لثأرٍ وهَزَّ البرق صفحةَ صارمِ

وما لبستْ زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم

وهل شققت هوج الرياح جيوبها لغيري أو حنت حنين الروائم

وصلت القصيدة إلى المعتمد بن عباد, فيكاد يبكي مع الغمائم الباكية ويكاد ينوح مع الحمائم لو يليق ذلك بملك ، ويعلم من الرسول أين مكان صاحبه, فيصل بكل ما يستطيع أميرٌ صديق أن يصل به صديقه، ويعود الرسول يحمل إلى ابن عمار من المال الخيرَ الكثير, وهذا يدل على حُبٍّ مقيم, وصداقة متجذرة ما زالت أصيلة في نفس المعتمد, ليصل بعد ذلك ابن عمار إشبيلية, فتنتهي مرحلة نفيه وتغريبه, وتبدأ مرحلة جديدة, لم يكن يتوقعها حتى في أحلامه. وقد وظف الشاعر مفردات الطبيعة؛ ليعبر عن حاله المأساوي، فجعل ذاته مركز تصدر عنه أفعال الطبيعة مستغلًا القوى كافة، الحسية, والمعنوية, والتصويرية ؛لإيصال تجربته، والتعبير عن ذاته المفجوعة المتألمة، معتمدًا على الوظيفة الأولى للشعر؛ وهي التخييل، الذي يقصد منه حمل النفس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده .(ينظر: القرطاجني, د ت, ص ٢٠)وابن عمار يكثّف من ألفاظ الحزن باستعماله تقنية التشخيص: (الغمام تبكي، الحمام ينوح, وزهر النجوم أعلنت الحداد وأقامت مأتم، والرياح شققت الجيوب), كل ذلك حزنًا على ابن عمار؛ ليسخّر تلك المظاهر في الطبيعة عليه، ويشاركها ما أصابه في منفاه من تشرّد وألم، وفي هذا مبالغة كبيرة، لكنها مقبولة؛ لأنها لبست ثوب التخييل، ونُظمت في سياق من الحيرة والاستفهام الذي لا يبحث عن إجابة، وإنما يقرر معنى لا شك فيه عند الشاعر، ثم يستمر الشاعر في استعطاف سامعيه, بقوله : (ابن عمار، ١٩٧٥ ص٢٠٩-١١٠)

من العابسات الدهم ألا التـفاتةً إلى غـرة أهـدت له ثـغر باسم

طوى بي عرض البيد فوق قوائم توهمـــتني منهن فـوق قـوادم

وخاض بي الظلماء حتى حسبته له مربط بين النجوم العـــواتم

ألا قاتـل الله الـــجياد فإنهـــا نأت بي عن أرض العلا والمكارم

وهنا يبدي الشاعر وجدانياته التي تنبئ عن صدق عاطفته, وتبين الحالة المأساوية التي وصل إليها؛ لذا فهو يخاطب الخيل ويمني النفس منها التفاتة تعيده إلى ما كان عليه, ثم يقوم بشجبها؛ فقد تسببت بضياعه وأبعدته لدرجة أنه توهم أن لها مرابط بين النجوم كناية عن التيه الذي عاناه بعد نفيه عن مملكة بني عباد, ثم يدعو عليها؛ لأنّها نأت به **(عن أرض العلا والمكارم)** وهذه عودة منه إلى تملقه المعهود كي ينال عطفهم في الرجوع, ثم يسترسل بوصف حاله قائلًا: (ابن عمار، ١٩٧٥ ص٢١٠)

وإني لأَدعو لو دعوتُ لسامعٍ وإنـــي لأشكو لـو شكوتُ لـراحـمِ

أريد حياة البينِ والبين قاتلي وأرجو انتصار الدهر والدهر ظالمي

ولو أن عفوا من هنالك زارني لزرتُ ومـا عدو الزمـــانِ بـدائمِ

ومن الملاحظ أنّ الشاعر يعتمد على التكرار بشكل ملفت, وهذا التكرار ينبئ عن قلق الشاعر وإلحاحه في الإفصاح عن حالته التي وصل إليها، ومدى اضطراره وحاجته للسامع والراحم، فهو يدعو ويشكو ويريد ويرجو، ويستخدم الجملة الفعلية في ذلك؛ لما في هذه الجملة من دلالة على الحركة وعدم الثبوت، فهو قلق في منفاه خائف, مضطرب, تائه، لا يهنأ بالعيش في أيّ مكان, بعد العز الذي عاشه في إشبيلية وذلك التكرار يؤثر في اللغة الشعرية، ويعطيها طاقة انفعالية كبيرة؛ لما يحدثه من أصوات تثير انفعال المتلقي وأحاسيسه، ويذهب الدكتور محمد مفتاح: إلى أنّ تكرار الأصوات والكلمات والتراكيب ليس ضرورياً؛ لتؤدي الجمل وظيفتها المعنوية والتداولية، ولكنه شرط كمال أو محسن أو لعب لغوي, ومع ذلك فإن التكرار يقوم بدور كبير في الخطاب الشعري، أو ما يشبهه من أنواع الخطاب الأخرى الإقناعية (مفتاح, ٢٠٠٥ ص٣٩)**أما المرحلة الثانية:** فقد كانت بعد أنْ اشتهر ابن عمار وأوكلت إليه المهام الجسام، وكان أهلاً لها مضطلعاً بها، فعَظُمَ أمره، وذاع صيته، واستطاع فتح مرسية بجيش جهزه له المعتمد, ففتحها وراوده الطمع، ثم سولت له نفسه أن يستبد بأمرها، فحصل له ما أراد، وخرج على المعتمد بن عباد, وتمرد، وأصبح حاكمًا لها, (المراكشي, ١٩٣٦, ٩١-٩٣) فظن أنّه لم يعد بحاجة المعتمد؛ إذ أصبح ملكا مثله, ولم يكن يتوقع أنْ دائرة السوء سوف تدور عليه, وبالفعل, خرج عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق، فعزله ، وأغلق أبوابها بوجهه، فهرب وبقي حائراً، إلى أنْ لحق ببني هود أصحاب سرقسطة، فبقي عندهم، ثم كرهوه، وخافوا غدره، فأخرجوه من بلادهم، ثم لم تزل تتقاذفه البلاد، إلى أن وقع في حصن شقورة ، فأكرمه صاحبها ابن مبارك، وأحسن نزله، ثم رأى بعد أيام أن يسجنه، فلما رأى ابن عمار ذلك ،عرض عليه أن يرسل لملوك الأندلس من يرغب فيه، فوافق ابن مبارك على هذا، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد، الذي بعث رجاله ليتسلموا ابن عمار، فجاؤوا به إلى قرطبة، فدخلها أشنع دخول وأسوأه، ذليلاً خائفاً فقيراً، ثم أُخذ إلى إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة , وسجن بها وكتب في سجنه قصائد، لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع (ينظر: المراكشي, د ت, ص١١٣) ومن تلك القصائد: (ابن عمار، ١٩٥٧ص ٣١٩)

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

حنانيك في أخـذي برأيك، لاتطع عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا

فإن رجـائِي أن عنـدك غيـر مـا يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

لقد عاد ابن عمار هذه المرة إلى القيمة الاستعطافية, بعد أن تحوّل من القيمة المدحية إلى القيمة الهجائية, ويعلم ما الذي فعل بالمعتمد؛ لذا نراه هذه المرة أكثر خوفًا, وارتباكًا, فيلقي بلومه على الأعداء الذين تسببوا بالجفاء بينه وبين صديق عمره المعتمد, فيقول له: افعل ما تشاء, ولكن لا تسمع من الوشاة والحاسدين؛ فالحقد هو من دفعهم للنيل منّي, ثم يذكره بالخدمات التي قدمها، بقوله: (ابن عمار، ١٩٥٧ص ٣١٩).

ولم لا وقد أسلفتُ ودا وخدمـةً يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبني وقد أعقبتُ أعمالَ مفسدٍ أما تفسد الأعمال ثمت تصلح

أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحـو روحِ اللهِ باب مـفتح

وعفُ على آثار جرمٍ سلكتُها بهبةِ رحمى منك تمحو وتمصح

إنّ الخدمات التي أسلفت في تقديمها جديرة في أنْ تمحو الخطايا, وامنحني فرصة كي أصلح ما أفسدت, فالذي بيني وبينك أكبر من أنْ تفسده حوادث عرضية, وهجاء تافه, و أعترفُ بالجرم الذي اقترفته غير أنّي أطمح بعفوك ورحمتك, ثم يعود لذكر الوشاة مرة أخرى: (ابن عمار، ١٩٥٧، ص٣٢٠)

ولا تلتفت رأي الوشاةِ وقولهم فكلُ إناءٍ بالذي فيه يرشح

كأني بهم لا در للهِ درهم أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعلِه فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشا للمؤيدِ يرتمي ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه صفاه يزل الذنب عنها فيسفح

يردد ابن عمار ذكر الوشاة دائما؛ لأنّه في فترة مجده أخذه الكِبر, فكان يتعامل مع أغلب من حوله بفوقية, فحتى المعتمد الذي انتشله من الحضيض إلى أعالي المجد, انقلب عليه, وأنزل به هجاء قل نظيره في الأندلس, وعندما أراد أنْ يفرّ من أفعاله لم يجد من يستقبله, فجيء به مقيدًا ذليلًا إلى المعتمد, يرسل له القصائد كي ينال عطفه دون جدوى.هذه القصيدة كانت آخر ما كتبه من الشعر، وكان لها الأثر العظيم في نفس ابن عباد، فقد أحس بالعطف والشفقة على صديقه القديم، وعزم على تخليصه، ولكنّ ابن عمار أفشى بعزم المعتمد على تخليصه، فعلم حساده, ووشوا به إلى المعتمد الذي لم يتردد في قتله بعد أن توسل إليه، وألقى بنفسه على قدميه يخضلهما بدموعه، ويمسحهما بقبلاته.(ينظر: ابن بسام، ١٩٩٧, ص٤٣٠-٣٢٩) وهكذا كانت نهاية ابن عمار المغامر الجريء, ذي الأصل المغمور والعائلة الفقيرة البائسة, ابن عمار الطموح الاريب والسياسي البارع, وأخيرًا الشاعر المشهور الذي أعدّه مؤرخو الأدب في عصره من خيرة الشعراء الذين قدمتهم إسبانيا الإسلامية للأدب العربي . (ينظر: ابن عمار، ١٩٧٥, ص١٦٦).

الخاتمة:

تبين أن ابن عمار من ضحايا انهيار دولة الطوائف؛ فالمزاج العام لهذه الدولة هو من فرض عليه هذا التقلّب , والتملّق, فكان لا بد له أن يساير الملوك كي يكسب قوت يومه بـ (بالمدح, أو الهجاء) حتى لو كان على حساب مبادئه, أو ولائه, أو كرامته.إنّ فقر الشاعر وتشرده وضعة أصله, هو من دفع به لارتقاء سلّم المجد الذي تسبب بمقتله بعد ذلك؛ فكان يرى أنه لا يختلف عن الذين استبدوا بمقاطعة ما من أرض الأندلس, وجعلوا منها مملكة, فلماذا لا يفعل مثلهم ؟شِعرُ ابن عمار في بداية شبابه وتشرده كان أقوى منه في بلاط آل عباد؛ وذلك لأنه كان يتخذ من الشعر صنعة يصل بها إلى ما يصبو إليه, وعند وصوله انتفت الحاجة لذلك, ثم تعود القوّة ذاتها عندما تتغير أحواله, وهذا يعني أن الشاعر لديه موهبة فطرية, غير أنّ هواجسه والعقد المترسبة في داخله, جعلته يتخلّى عن تلك الموهبة للوصول إلى المجد المنشود, وتعويض النقص الذي يحسّه.إنّ قضية التحوّل القيمي ليست جديدة على شعراء عصر الطوائف, فلم تكن بدعة أوجدها ابن عمار؛ فأغلب شعراء البلاط كانوا على ذلك, غير أنّ شاعرنا قد أخطأ سياسيًا, لا أدبيًّا؛ لأن الشعر قد أوصله أبعد مما كان يتخيل.

ثبت المصادر والمراجع:

١. ابن الأبار, عبد الله بن محمد, الحلة السيراء, تحقيق حسين مؤنس, دار المعارف, القاهرة, (ط ٢) , ١٩٨٥.
٢. ابن بسام, أبو الحسن علي الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس, دار الثقافة، لبنان، بيروت، (ط ١) ١٩٩٧.
٣. ابن دحية, أو خطاب عمر بن حسن الكلبي, المطرب من أشعار أهل المغرب, المطبعة الأميرية, القاهرة , (ط ١), ١٩٥٤.
٤. الضبي, احمد بن يحيى بن عمير ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس مطبعة روخس (د ط) ١٩٨٤ .
٥. خالص، صلاح، محمد بن عمار الأندلسي، دراسة تاريخية أدبية، مطبعة الهدى, بغداد،(د ط), ١٩٥٧.
٦. الدايه, محمد رضوان, المختار من الشعر الاندلسي , دار الفكر بيروت .لبنان, (د ط), (د ت).
٧. العريس ,محمد, موسوعة شعراء العصر الاندلسي, منشورات دار اليوسف بيروت، لبنان (د ط), (د ت).
٨. فروخ , عمر, تاريخ الأدب العربي , الأدب في الأندلس والمغرب، دار العلم للملايين بيروت , (د ط), (د ت).
٩. القرطاجني، أبو الحسن حازم، دار الغرب الإسلامي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة(د.ت)، (د.ط)،.
١٠. الغديري, مصطفى، شعر محمد بن عمار الأندلسي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية, جامعة محمد الأول, وجدة , (ط ١), ٢٠٠٠.
١١. المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، الكتاب الثالث، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، يشرف على إصدارها: محمد توفيق عويضة ، (د.ط)، ١٩٣٦.
١٢. مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي(ط ٤), ٢٠٠٥.
١٣. .المقري, أحمد بن محمد التلمساني, نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, تحقيق إحسان عباس, دار صادر، بيروت, (د ط)، ١٩٩٧.
١٤. والي, فاضل فتحي, الفتن والنكبات وأثرها في الشعر, دار الأندلس للنشر والتوزيع, حائل, (ط ١), ١٩٩٦.

List sources and references:

1- Al-Qartajani, Abu Al-Hasan Hazem, (without edition), (without date), Dar
Al-Gharb Al-Islami, Minhaj Al-Balagha and Siraj Al-Adabaa, presented and edited by: Muhammad Al-Habib Ibn Al-Khoja.
2- Ibn Dihya, or Khattab Omar bin Hassan al-Kalbi, Al-Mutrib fi Shi'r Ahl Al-Maghreb, Al-Amiriya Press, Cairo, (1st edition), 1945.
3- Wali, Fadel Fathi, Temptations and Calamities and Their Impact on Poetry, Dar Al-Andalus for Publishing and Distribution, Hail, (1st edition), 1996.
4- Ibn al-Abar, Abdullah bin Muhammad, Al-Hillat al-Sira', edited by Hussein Mu'nis, Dar al-Maaref, Cairo, (2nd ed.), 1985.
5- Al-Marrakshi, Abu Muhammad Abd al-Wahid bin Ali, (without edition), (without date), Al-Mu'jab in Summarization of Moroccan News, edited by: Muhammad Saeed Al-Arian, Book Three, United Arab Republic, Supreme Council for Islamic Affairs, Heritage Revival Committee Its publication is supervised by: Muhammad Tawfiq Awaida.
6- Khalis, Salah, (1957), (ed.), Muhammad bin Ammar Al-Andalusi, a historical and literary study, Baghdad, Al-Huda Press.
7- Muftah, Muhammad, (2005), (4th edition), Analysis of Poetic Discourse (Intertextual Strategy), Morocco, Casablanca, Arab Cultural Center.
8- Ibn Bassam, Abu Al-Hassan Ali Al-Shantarini, (1997), (ed.), Al-Dhakhira in the Virtues of the People of the Peninsula, edited by: Ihsan Abbas, Lebanon, Beirut, House of Culture, Section Two, Part One.
9- Al-Aris, Muhammad, Encyclopedia of Andalusian Poets, Dar Al-Youssef Publications, Beirut, Lebanon (without edition), (without date).
10- Farroukh, Omar, History of Arabic Literature, Literature in Andalusia and Morocco, Dar Al-Ilm Lil-Millain, Beirut, (without edition), (without date).
11- Al-Dayeh, Muhammad Radwan, Al-Mukhtar from Andalusian Poetry, Dar Al-Fikr, Beirut, Lebanon, (without edition), (without date).
12- Al-Aris, Muhammad, Encyclopedia of Andalusian Poets, Dar Al-Youssef Publications, Beirut, Lebanon (without edition), (without date).
13- Bughyat Al-Talammus fi Rijal Al-Andalus, Ahmed bin Yahya bin Omair Al-Dhabi, Rokhs Press, Magrit, 1984.
14- Khalis, Salah, (1957), (ed.), Muhammad bin Ammar Al-Andalusi, a historical and literary study, Baghdad, Al-Huda Press.